PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(3): 10-21
ISSN:1553-6939

"THE ROOTING OF MARGINAL LITERATURE IN CONTEMPORARY ALGERIAN NOVELS THROUGH THE "DETECTIVE NOVEL", CASE STUDY: "BIMADA TAHLUMU DI'AB?" (WHAT DO WOLVES DREAM OF?)

Yasmina Khadhra, Merdaci Imene

University Of Abbes Laghrour Khenchela (Algeria), E-mail: merdaci.imene@univ-khenchela.dz

Received: 03/2024, Published: 04/2024

Abstract:

The diversity experienced by the Arab novel in general, and the Algerian one in particular, in terms of genres, themes, and visions, has made it one of the most prevalent and esteemed literary genres. The Algerian novel has always been, and continues to be, pioneering in establishing its place from its foundational stage to the present day.

This study concluded that the Algerian novelistic achievement distinguished itself by undergoing radical transformations, especially after falling into the trap of commercialism and merely seeking profit at the expense of the true purpose of literature; this is particularly evident in what is known as the detective novel. This was confirmed by Yasmina Khadra's novel "Bimada Tahlumu Di'ab?" (What Do Wolves Dream of?)

Keywords: Novelistic experience, Marginal literature, Elite literature, Commercialization concept, Detective novel.

تجذر أدب الهامش في الرواية الجزائرية المعاصرة من خلال "الرواية البوليسية" رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا –نموذجا-

مرداسي إيمان

جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)، merdaci.imene@univ-khenchela.dz

ملخص:

إن التنوع الذي عاشته الرواية العربية عامة، والجزائرية خاصة من حيث الأنواع والمواضيع والرؤى، جعلتها من أكثر الأنواع أو الأجناس الأدبية شيوعا ومكانة ، لقد كانت الرواية الجزائرية ولا تزال سباقة لإيجاد مكان لها منذ مرحلة التأسيس إلى يومنا هذا.

ولقد توصلت هذه الدراسة إلى أن المنجز الروائي الجزائري تميز بنوع من التحولات الجذرية انطلاقا من سقوطه في فخ التسليع والبحث فقط عن الربح المادي على حساب الهدف الحقيقي من الأدب؛ خاصة من خلال ما عرف بالرواية البوليسية، وهذا ما أكدته رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا.

الكلمات المفتاحية: التجربة الروائية، أدب الهامش، أدب النخبة، فكرة التسليع، الرواية البوليسية.

1-مقدمة:

تعددت أشكال الكتابة وتنوعت منذ العصرين اليوناني والإغريقي بين ما هو شعري –كالشعر الملحمي- وما هو نثري-كالمسرحية-، وبقيت هذه الأجناس ترتقي وفق سيرورة معينة تتقصى راهنها دون اخلال بعنصر الخيال الذي أضفى نفسا مميزا على هذه الأجناس منذ بداياتها، وتعد الرواية أكثر الأنواع أو الأجناس الأدبية تداولا، وأرقاها مكانة، بالرغم من تعدد أنواعها ومواضيعها ومراحلها في الأدبين العربي والغربي.

ومع مرور الوقت وبزوغ فجر الحداثة وما بعدها، ظهرت العديد من المفاهيم والمصطلحات التي غيرت النظرة للأدب، ومن أهم هذه المصطلحات ما عرف بمصطلحي المركز والهامش وما وقع بينهما من صراع وجدل خاصة في مجال السرد؛ لقد ذاع سيط مصطلحي المركز والهامش في الأدب في النصف الثاني من القرن

العشرين؛ وبالتحديد في سبعينيات القرن الماضي، غير أن جذورهما تمتد إلى أبعد من هذا بكثير؛ فإذا رجعنا إلى أقدمية هاذين المصطلحين لوجدنا أن قضية المركز والهامش من القضايا التي ظهرت وبإلحاح كبير منذ القديم، فمثلا على مستوى أدبنا العربي كان الشاعر يمثل مركزا في قبيلته نظرا للمكانة التي وهبتها إياه قبيلته، ومن خرج عن عرف القبيلة وأساسياتها أصبح دون شك يعيش على الهامش وهذا ما حدث للشعراء الصعاليك مثلا؛ فقد تمردت هذه الشريحة على قبائلهم وكسرت كل القيود بتبني أنظمة شعرية مختلفة عن معاصريها شكلا ومضمونا، أما في ما يخص الأدب الغربي فيعود الحديث عن المركز والهامش إلى ما دعا إليه أرسطو في ما يخص المسرحية كجنس أدبي ورفضه للملهاة، وجعل المأساة الجنس المقدس عنده.

تعد ثنائية المركز والهامش من الثنائيات التي أثارت جدلا بين النقاد، هذه الثنائية التي نجدها في مجالات عديدة كالسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والأدب، وللإشارة أن العلاقة القائمة بين المركز والهامش هي علاقة تنافر، فليس هناك أي توافق إلا نادرا، لقد عاشت الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة نوعا من التجذر والإنغراس للنوع الثاني من الكتابة الروائية أي ما عرف بأدب الهامش خاصة من خلال الرواية الوليسية، ولقد تأثر بهذا النوع من الكتابة العديد من الروائيين الجزائريين المعاصرين أمثال: ياسمينة خضرا، عز الدين جلاوجي، محمد جعفر، نسيمة بولوفة،... وغيرهم.

واعتمدنا في كل ذلك المنهج الوصفي التاريخي، مركزين على آليتي الإحصاء والتحليل، وستسعى الدراسة للإجابة عن الأسئلة التالية:

-ماهية أدب المركز وأدب الهامش؟

-ما هي خصائص وأنواع أدب الهامش؟

-ماهية الرواية ونشأتها الغربية والعربية؟

-كيف كانت نشأة الرواية الجزائرية المعاصرة؟

-هل وجدت الرواية البوليسة في الجزائر نفسها رهينة الهامش؟

-هل كانت رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لـ ياسمينة خضرا مثالا حيا لكتابات الهامش في الرواية الجزائرية المعاصرة؟

2-مفهوم الأدب المركزي: (أدب النخبة، الأدب المتعالي، الأدب الرسمي...)

لقد تباينت التعريفات التي عرضت للأدب المركزي، فهناك من يرى أنه الأدب البلاطي، وهو أدب يشتغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الناس، ومنهم من يقر بأن أدب المركز هو الأدب الذي يخدم الطبقة العليا في المجتمع؛ لذلك فهو محاط بالاهتمام، فخطاب المركز إذن هو الخطاب الرسمي الذي لا يقيم وزنا للكيانات الأخرى.

وللإشارة فقد تعددت مسميات الأدب المركزي منها: الأدب العالمي، أدب النخبة، الأدب المتعالي، الأدب الرسمي،... وغيرها من المسميات الأخرى التي أطلقت على هذا النوع من الكتابة.

3-مفهوم أدب الهامش:

من المتعارف عليه أنه لا وجود لمتن دون هامش، ولا وجود لهامش دون مركز ينطلق منه، لذلك وجب علينا بعد التعريج على مفهوم الأدب المركزي الإشارة لمفهوم أدب الهامش ومعانيه المتعددة.

لقد ظهر مصطلح الهامش لأول مرة مرتبطا بعلم الاجتماع؛ بتلك الطبقة الكادحة والمهمشة من المجتمعات، وشيئا فشيئا استعار الأدب هذا المفهوم وتم استثماره في المجالين الأدبي والنقدي.

تعد لفظة هامش من أكثر الألفاظ هلامية في تحديد المفهوم والمعاني؛ فقد انفتحت لفظة التهميش على أكثر من تأويل ففي المجال الأدبي يمكن أن نتحدث في مجال أدب الهامش عن المسكوت عنه، كونه يناقش أحد المحرمات الثلاث: الدين أو السياسة أو الجنس؛ فهو الأدب المتمرد على التقاليد والعرف إذ أنه نوع من الأدب الذي يعيش في العتمة والظلام، بعيدا عن الأضواء لأنه مستبعد وغير مرحب به، كما يمكن أن يعرف أيضا بأنه كل أدب ينتج خارج المؤسسة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية، أو ثقافية، أو أكاديمية، فأدب الهامش هو أدب العامة

والغوغاء، والشيء الهامشي هو الذي يعيش منفردا غير مندمج في المجتمع، ويحيلنا هذا كله إلى تعريف موجز لأدب الهامش؛ كونه كل أدب حاد عن قواعد المؤسسة السائدة للكتابة، إن الخروج عن المألوف هو ما جعل أدب الهامش "تسلط عليه الرقابة والمنع، إذا بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء...، كونه يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان؛ بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء"[1]

ويعرف أدب الهامش أيضا بأنه أدب "لا يعرف التلون، ولا يرغب في انتهاز الفرص....، بل يسعى لرفع الظلم عن المظلومين، ويكرس نفسه لخدمة قضايا الإنسان، من حيث هو إنسان، ويسعى لمساعدة المحرومين والضعفاء"[2].

ويتخذ معنى لفضة هامشي ثلاث صور يوضحها المخطط الآتي:

المخطط 1: يمثل تعدد المفاهيم الأدبية لمصطلح هامش

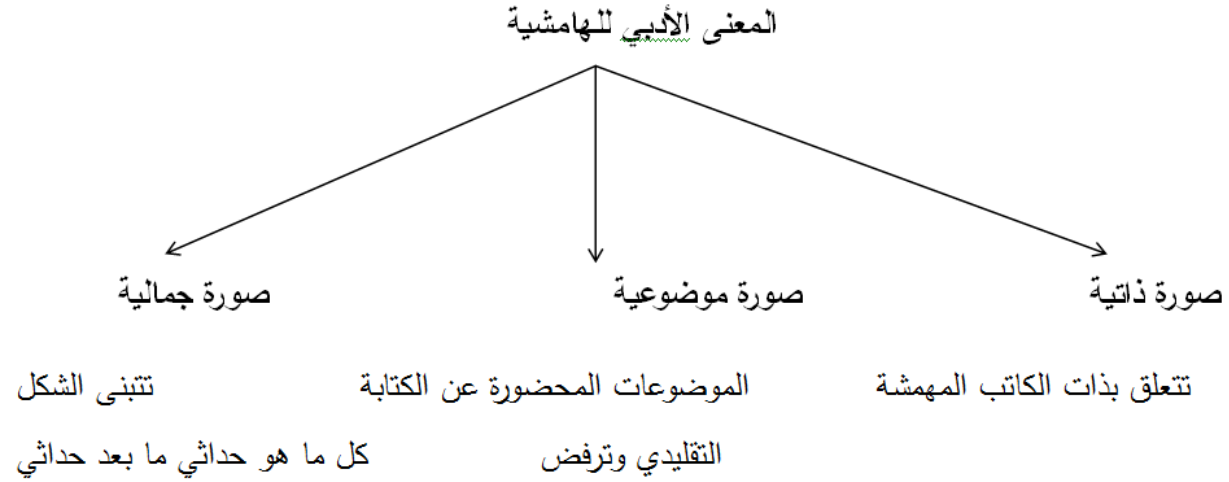

3-1-خصائص أدب الهامش:

يتصف أدب الهامش بعديد الخصائص التي تميزه عن باقي الكتابات الأخرى، ومن أهم هاته الخصائص:

-هو أدب ينتج خارج المؤسسة الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الأكاديمية،...وغيرها، وهذا ما أدى إلى اهماله من قبل الدوائر الرسمية؛ وذلك ناتج عن رفض المبدع الخضوع للسلطة التي تملي عليه مجموعة من المعطيات التي تقيد حريته.

-لا يختلف أدب الهامش عن غيره من الانتاج الأدبي في شكل من أشكال الكتابة، إنه يعتمد الخصائص الفنية ذاتها المستعملة شعرا كانت أم نثرا.

-لا يمكن التوحيد بين الأدب الموازي والأدب الرسمي؛ وذلك لاختلاف المضامين وأسلوب الكتابة والأهداف، ففنية الكتابة البوليسية لا تشبه في أي حال من الأحوال فنية الرواية التاريخية مثلا.

-الخوض في المسكوت عنه، عن طريق اختراق المحظور.

-التركيز على الشخصيات المنبوذة في المجتمع والتي تعيش على هامشه، هذا التهميش الذي يكون إما بحرية ذاتية، أو تهميش عن طريق المؤسسة الرسمية.

- تعتبر صفة الدونية من الصفات التي تلازم وتلاحق أدب الهامش، هذه الدونية التي لا ترتبط بالقيمة الفنية للإبداع ولكن انطلاقا من وضع كاتبها الاجتماعي.

- هو أدب يرفض القوالب الجاهزة التي تمليها المؤسسة الثقافية على المبدعين، هذه القوالب التي تكون على مستوى التيمات، أو على مستوى تقنيات الكتابة والتعبير.

-يرتبط أدب الهامش ارتباطا وثيقا بحياة صاحبه، بحيث لا يمكن الفصل بين الهامش الاجتماعي للمبدع والهامش الأدبي للإبداع في حد ذاته.

3-2-أنواع أدب الهامش:

تعد الموضوعات التي تنعت بالتابوهات –المحرمات الثلاثة: الدين، الجنس، والسياسة-، من أهم الموضوعات التي يهتم بها أدب الهامش، ومنه يمكن أن نجمل أنواع أدب الهامش في المخطط التالي:

المخطط2: مخطط يمثل أنواع أدب الهامش في الأدب العربي

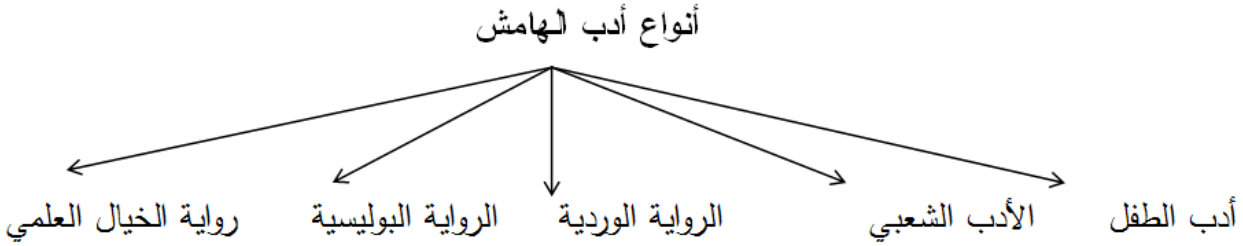

ومما سبق يمكن القول أن ثنائية المركز والهامش هي ثنائية تحيا في كل واحد منا، نراها في كل مكان بداخلنا، بوعينا ولا وعينا، في حلمنا ويقظتنا،...، فهي ملمح من ملامح الاختلاف وسوء التفاهم بين عقليتين متباينتين أحدهما تمجد المركز وتحتفي بأصحابه، والأخرى ترفض الهامش وتنبذ أتباعه.

4-مفهوم الرواية ونشأتها الغربية والعربية:

يعد السرد غريزة إنسانية سعى إليها الإنسان منذ أن عرف الحياة الاجتماعية وما يرتبط بها من رغبة في تكوين علاقة مع الآخر من خلال الحاجة الملحة لعملية الحكي، وهنا جاءت الرواية كشكل من الأشكال الأدبية التي تقوم على مبدأ السرد، لذلك وجب علينا أن نتعرف أكثر على مفهوم الرواية باعتبارها شكل من أشكال التعبير.

4-1-المفهوم الاصطلاحي للرواية:

أما الرواية في التعريف الاصطلاحي فهي جنس من الأجناس الأدبية النثرية المطولة، وهي أكبر الأنواع القصصية –القصة، القصة القصير، الأقصوصة، الحكاية،...- حجما؛ فهي عبارة عن سرد لأحداث واقعية أو خيالية مرتبة ترتيبا معينا هدفها الإمتاع والتثقيف للسامعين أو القراء، ويعرفها ميشيل زيرافا بأنها "نوع سردي نثري في مستوى أول، وفي مستوى ثان يكون هذا القصص، حكاية خيالية. وفي الوقت نفسه خيال ذو طابع تاريخي عميق. وأخيرا فإن الرواية فن في أجزائها كما في كلها؛ وهي تبرز في شكل خطاب موجه ليحدث مفعولا جماليا، بفضل استعمال بعض المحسنات"[3].

وتصنف أنواع الرواية بحسب المواضيع التي تتناولها، وتعتبر الرواية التاريخية أكثر أنواع الرواية انتشارا في الوطن العربي، كما تتشكل الرواية كغيرها من الأنواع القصصية الأخرى (القصة، القصة القصيرة، الحكاية،...) من مجموعة من العناصر والمكونات التي تتظافر في ما بينها للحصول على عمل متكامل يستحق لقب عمل روائي، أو ما يعرف بـ "الرواية الفنية"؛ وتتمثل هذه العناصر في: الزمان، المكان، الشخصيات –رئيسية وثانوية-، الفكرة أو المغزى، الأحداث، العقدة أو الحبكة،....وغيرها.

4-2- واقع الرواية في الآداب العالمية:

تعد الرواية من أقدم الأنواع الأدبية في التراث العلمي، لذلك وجب علينا أن نفرق في هذا المقام بين مرحلتين من تطور الرواية؛ أولها المرحلة البدائية لفن القص في الآداب العالمية؛ فلقد حاولت هاته القصص والحكايات والأساطير أن تضع اللبنات الأولى التي أسست لفن الرواية في ما بعد، هذا الفن الذي لم يجد الجو الملائم لظهوره إلا مع بدايات القرن السابع عشر، وظهور بوادر الحداثة في الأدب العالمي؛ حيث "تعد قصة 'أستريوس' Astree لهونوريه دورفيه في عام 1610م بدءا لعصر الرواية الفرنسية"[4]، وهنا بدئت المرحلة الثانية؛ وهي الظهور الفعلي لفن الرواية في الأدب العالمي، أما في القرن السابع عشر فقد حملت الرواية المعنى الذي احتفظت به إلى اليوم؛ وهو ذلك الفن النثري الذي نعرفه الآن، يعتبر القرن السابع عشر نقطة تحول في مختلف المجالات خاصة المجال الأدبي فقد حاولت مختلف الأجناس الأدبية أن تجد المكان المناسب الذي يلائمها وذلك مع ظهور ما يعرف بالمذهب الكلاسيكي في الأدب، هذا المذهب الذي اعتمد مبدأ محاكات كل ما هو قديم وبعثه من جديد،

فقد بقية الرواية مثلا صورة حية للمحافظة على المفاهيم القصصية والحكايات القديمة، غير أن الرومانسية لم تترك المجال لمثل هذه الأفكار للانتشار أكثر ودعت إلى ضرورة تقديس العاطفة على حساب العقل، هذه الظروف وغيرها أدت إلى ظهور الرواية في أوروبا بوصفها جنسا أدبيا مؤثرا في القرن الثامن عشر، وقد شهدت الرواية في هذا القرن تطورات في الأسلوب والمحتوى مهد لميلاد الرواية الحديثة، ومن أهم كتاب الرواية في هذه المرحلة: فولتير، جان جاك روسو، فيكتور هيغو،...وغيرهم، لقد بلغت الرواية قمتها مع بدايات القرن العشرين ومن أشهر روايات هذه المرحلة:" رواية (يوليسيس) لجيمس جويس 1922م ، ورواية (مزيفو العملة) لأندريه جيد عام 1926م، و(الصخب والعنف) لفوكنر، و(البحث عن الزمن الضائع) لمارسيل بروست، و(القصر) لفرانز كافكا، ورواية (الغثيان) عام 1938م لجان بول سارتر"[5].

3-4-واقع الرواية العربية:

لقد كان لظهور الطباعة والصحافة في القرن التاسع عشر في الوطن العربي الأثر الكبير الذي ساهم في ولادة الرواية العربية؛ غير أن عملية الولادة هذه لم تأتي من فراغ بل كان للأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية الدور الكبير في ذلك، وعلى رأسها الاحتكاك المباشر وغير المباشر بالثقافة الغربية عن طريق الترجمة أو البعثات العلمية، وقد كانت أول محاولة في هذا الفن من خلال رواية "الهيام في جنان الشام" لـ سليم البستاني عام 1870م؛ والتي نشرت في مجلة "الجنان" في شكل متسلسل- هذه المجلة التي أنشأها والده-، وكان لإنشاء مجلات أخرى كـ (الهلال، المشرق،...) الأثر الواضح في تأصيل هذا الفن في أدبنا العربي، ويعد الروائي جورجي زيدان الأب الروحي لفن الرواية خاصة من خلال ما كتبه في مجال الرواية التاريخية، حيث كان له الفضل الكبير منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى غاية وفاته عام 1914م في جلب الاهتمام بالتاريخ العربي والإسلامي؛ وذلك من خلال ما عرف بسلسلة روايات تاريخ الإسلام كروايات "عذراء قريش"، و"شجرة الدر"، و"صلاح الدين الأيوبي"، و"فتاة القيروان"، ...، غير أن الميلاد الحقيقي لما يعرف بـ "الرواية الفنية" في الوطن العربي كان من خلال رواية "زينب" لـ محمد حسين هيكل؛ والتي نشرت عام 1913م ، وقد كان عنوانها الكامل "زينب-مناظر وأخلاق ريفية" والتي صور فيها حياة الإنسان الريفي بمصر في تلك المرحلة، وتمثل هذه الرواية الإعلان الفعلي لفن الرواية في الأدب العربي الحديث، ثم توالت الأعمال الفنية بعد ذلك أمثال: طه حسين (دعاء الكروان، شجرة البؤس، الأيام،...)، نجيب محفوظ (قصر الشوق، بين القصرين، أولاد حرتنا،...)، توفيق الحكيم (عودة الروح، أهل الكهف، السلطان الحائر...)، ومحمود تيمور (نداء مجهول)، غادة السمان،....وغيرهم ممن أبدعوا في فن الرواية العربية في القرن العشرين.

4-4-واقع الرواية الجزائرية:

أما في الأدب الجزائري فقد كان ظهور فن الرواية محتشما إلى حد بعيد، وذلك راجع إلى الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي عاشتها الجزائر، بالرغم من أن الجزائر قبل الاحتلال كانت تملك مؤسسات ثقافية تتماشى وواقع الإنسان الجزائري؛ لقد " كانت ثقافة الجزائر، من قبل إسلامية عربية، وكان لهذه الثقافة كيانها وعناصرها المستمدة من الدين والعلم والتقاليد القومية والاجتماعية، وكان لها مراكز ومؤسسات شعبية منها المدارس وهي بمستوى المدارس الابتدائية و 'الزوايا' وهي المراكز الدينية التي تعد الطلاب للالتحاق بالجامعات الإسلامية كالأزهر في مصر، والزيتونة بتونس، جامع القرويين بالمغرب"[6]، غير أنه ومنذ نزول المستدمر الفرنسي في سيدي فرج سعى جاهدا إلى طمس الثقافة والهوية الجزائرية ومحو المقومات الإسلامية بشتى الطرق والوسائل كتحويل الأماكن الدينية إلى ثكنات ومستشفيات عسكرية، مع منع كل التجمعات وسعت إلى اعتماد سياسة التجهيل وغلق المساجد والزوايا، حيث يقول أحد المستشرقين: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع أن يتعلم فيها مواد أخرى، فعددها محصور جدا، ويبدوا أن هذا العدد يتناقص باستمرار"[7].

لقد كان لهذه الظروف والأجواء الثقافية القاسية التي عاشتها الجزائر أثر كبير على محدودية الكتابة في مختلف الميادين، فقد شهد الفن الروائي مثلا بعض المحاولات التي عكست الظروف القاهرة التي تعيشها

الجزائر كـ "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" لـ محمد بن براهيم عام 1849م، بالإضافة إلى محاولات أخرى إلا أنها لم ترقى لمصاف الرواية الفنية فقد اتسمت بالضعف اللغوي والفني، ثم تلتها ثلاث أعمال ذات طابع قصصي وذلك في سنوات 1852، 1862، 1878؛ تصف رحلات جزائرية إلى باريس، غير أن هذه الأعمال وغيرها لم تمتلك القدرة الكافية لأن ترقى إلى فن الروائي الحقيقية.

تعتبر رواية "غادة أم القرى" للكاتب أحمد رضا حوحو سنة1947م -والتي ظهرت متزامنة مع أحداث 8 ماي 1945م-؛ هذا العمل الذي يمثل أول عمل حقيقي تبنى الخصائص الحقيقية للرواية الفنية وبعدها توالت الأعمال الروائية كرواية "الطالب المنكوب" لـ عبد المجيد الشافعي سنة 1951م، ورواية "الحريق" لـ نور الدين بوجدرة سنة 1957م،.....وغيرها، إلا أن كل هذه الأعمال اتصفت بالضعف والتذبذب الفني، بالرغم من هذا تبقى محاولات أسست لفن الرواية فيما بعد.

***مراحل الرواية الجزائرية:**

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الرواية الجزائرية إلى مرحلتين كما هو موثق في المخطط الآتي:

المخطط 3: يمثل المرحلتين التي مرت بهما الرواية الجزائرية الحديثة

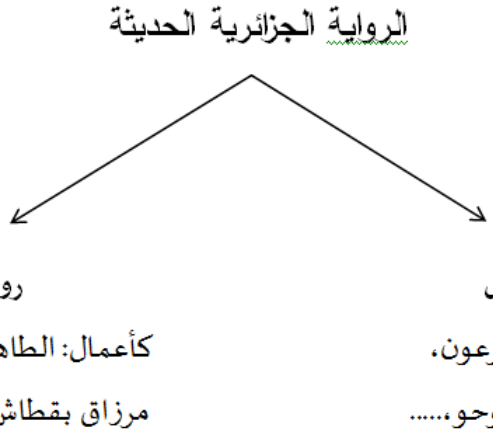

لقد حققت الرواية الجزائرية بعد الاستقلال كثيرا من التميز، واثبات الذات والخصوصية لتلج بقوة عتبات التجريب والحداثة، مما مكنها من احتلال مكانة هامة في رحاب الساحة الأدبية العالمية، خاصة تلك الكتابات التي شهدتها فترة السبعينات من القرن الماضي.

فمع بداية السبعينيات شهدت الرواية استفاقة نوعية لم يعرفها المشهد الروائي من قبل؛ وهذا كان نتاج التغيرات التي عاشتها الجزائر في هذه المرحلة " فقد مثلت الجزائر نموذجا لأزمة الوطن والمواطن في العالم العربي، حيث قدم هذا البلد أكثر من مليون شهيد، لنيل استقلاله، ثم تبنى سياسات التعريب، والعودة لأحضان الثقافة العربية والإسلامية"[8]، فبرز العديد من كتاب الرواية بأعمال فذة مثلت الميلاد الحقيقي لفن الرواية في الأدب الجزائري الحديث أمثال رواية "اللاز" عام 1974م و"الزلزال" عام 1974م، رواية "رمانة" 1971م لـ طاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة في رواية "ريح الجنوب" عام 1971م ورواية "نهاية الأمس" سنة 1975م، مرزاق بقطاش في روايات "طيور في الظهيرة" عام 1976م ، ورواية "جراد البحر" عام 1978م، وسيني الأعرج، أمين الزاوي،...، لقد كان للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية الأثر الكبير في تأخر ظهور الرواية في الأدب الجزائري، وذلك إذا ما قرنه بالأدب العربي لأن الاستعمار الفرنسي حاول طمس الهوية العربية وفرض ثقافته بشتى الطرق لذلك كانت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية أسبق في الظهور من الرواية المكتوبة باللغة العربية، أما في ثمانينيات القرن العشرين فقد بقية الرواية الجزائرية تسير وفق وتيرة منتظمة نحو القمة عن طريق مجموعة من الرواد اللذين واصلوا مسيرتهم التي بدؤها من قبل، ومن أشهر الروايات في هذ المرحلة: الطاهر وطار من خلال روايات "العشق والموت في الزمن الحراشي" عام 1982م، ورواية "عرس بغل" سنة 1983م لطاهر وطار أيضا، رواية "على جبال الظهرة" عام 1983م و"السعير" عام 1986م لـ محمد ساري، روايات "المومس والبحر" عام 1986م و"قفزة في الظلام" 1986م لـ مرزاق بقطاش، عبد الحميد بن

هدوقة في روايات "بان الصبح" عام 1980م ورواية "الجازية والدراويش" سنة 1983م، رواية "الانفجار" عام 1983 و"هموم الزمن الفلاقي" عام 1986م لـ محمد مفلاح...، إن الظروف والأوضاع التي عاشها المبدع الجزائري أثرت بطريقة أو بأخرى في انتاجه الثقافي، فقد "انفجرت الأزمة في منتصف الثمانينيات: بطالة، وغلاء، وفسادا، لينتهي الأمر إلى حرب شبه أهلية، أتت على الأخضر واليابس، في مواجهة دامية بين العسكر والعلمانيين الذين ساندوهم وبين الإسلاميين"[9].

ومع حلول التسعينيات تغيرت الأوضاع التي كان يعيشها الإنسان الجزائري؛ وذلك مع بداية ما عرف بالعشرية السوداء، تلك الظروف السياسية القاهرة التي مرت على الجزائريين وأثرت بطريقة أو بأخرى على الروائيين باعتبار أن الإنسان ابن بيئته، وظهرت العديد من الروايات التي حاكت الواقع الاجتماعي والسياسي، والثقافي،..للجزائر ومن أشهر الكتابات الروائية في هذه المرحلة: "الشمعة والدهاليز" عام 1995م، و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" 1999م لـ الطاهر وطار، رواية "غدا يوم جديد" سنة 1992م لـ عبد الحميد بن هدوقة، "أغنية البعث والموت" 1993م لـ مرزاق بقطاش...

لقد مثل مطلع القرن الحادي والعشرين ميلادا جديدا لأسماء لامعة في سماء الرواية الجزائرية كـ أحلام مستغانمي، ياسمينة خضرا، ...وغيرهم؛ هذه الأسماء التي حاولت أن تعطي نظرة جديدة لفن الرواية سواء من حيث المواضيع أو اللغة أو الأسلوب.

وهكذا تبنت الرواية الجزائرية الجديدة نوع من التغيير، خاصة تلك الروايات التي تبنت الحديث عن مرحلة العشرية السوداء؛ تلك التي عرفت بالرواية البوليسية.

5-دراسة حول رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا:

تعد الرواية البوليسية من أكثر الأنواع التي استقطبت شريحة كبيرة من القراء، بحيث تتطلب الذكاء وسرعة البديهة والاهتمام بالتفاصيل الصغيرة من أجل السيطرة على النص، والوصول إلى مختلف الألغاز التي يقوم عليها، وقد ولج هذا النوع إلى الأدب العربي في بداية الحرب العالمية الثانية وذلك عن طريق الترجمة، وفي مقدمة من ترجم لهم الكاتب الاسكتلندي "آرثر كونان دويل"، وقد ورد في كتاب "الرواية البوليسية" لعبد القادر شرشال أن "الرواية البوليسية لعبة يضاف إليها الأدب، لعبة تنمي قوى الملاحظة والفهم السريع والمنطق وتعلم القارئ أن يفكر بطريقة تحليلية وأن يفهم التكتيكات والبراعة في التخطيط"[10].

ولقد ظهر هذا النوع من الكتابة الروائية –الرواية البوليسية- في الأدب العربي مع حلول النصف الثاني من القرن العشرين، لأن الظروف الاجتماعية في الوطن العربي كانت المحفز الأساسي في عملية الإبداع، بالرغم من هذا إلا أن الرواية العربية "استطاعت استثمار أهم مكونات الرواية البوليسية ضمن رؤية سوسيوثقافية في أعمال محسوبة لروائيين من أمثال: نجيب محفوظ، يوسف السباعي، يوسف إدريس، صنع الله إبراهيم، غالب هلسا، غادة السمان،...."[11] وغيرهم، بحيث استطاعوا استثمار عنصر الجريمة بطريقة مشوقة؛ وهذا ما نجده مثلا في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، ورواية "الشيء الآخر" لغسان كنفاني ،..... وغيرها.

أما في الأدب الجزائري فقد تفشى هذا النوع من الكتابات الروائية مع حلول ما عرف بكتابات العشرية السوداء أو أدب المحنة كما يقال، ويعد هذا النوع من الكتابات من الأعمال التي تندرج ضمن أدب الهامش إلى جانب: أدب الطفل، وروايات الخيال العلمي،....وغيرها.

وللإشارة أن رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا تنتمي إلى تلك الكتابات التي تبنت اللغة الفرنسية في الكتابة اعتقادا من أصحابها بأن هذا التبني سيورث أعمالهم نوعا من العالمية متجاوزين بذلك حاجز المحلية وللإشارة فإن الحبكة داخل الرواية البوليسية تقوم أساسا على استراتيجية صناعة اللغز، ثم محاولة ممارسة نوع من الضغط على القارئ وهو ما يولد نوعا من الإثارة داخل العمل الروائي، هذه الإثارة لا تقتصر على الأحداث وطريقة تتابعها داخل الرواية البوليسية فحسب، بل تتعداها إلى الشخصيات والأزمنة والأمكنة، هاته العناصر التي يكون لها حضور مكثف من بداية العمل إلى نهايته، هاته المكونات التي تزيد من الإثارة والتشويق والمتعة

وهي من العناصر المهمة داخل الرواية البوليسية، وعلى هذا الأساس فإن الرواية البوليسية بصفة عامة تسعى لكي تلهي المتلقي بحبكة متقنة تعج بالشخصيات والأزمنة والأمكنة.
لذلك سنسعى إلى دراسة الرواية انطلاقا من الشخصيات والزمان والمكان داخل رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا.

الشكل1: يمثل واجهة رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لـ ياسمينة خضرا

5-1-بنية الشخصيات داخل الرواية:

قبل الحديث عن الشخصيات داخل العمل الروائي يجب أولا التعريج على عنوان الرواية؛ باعتبار أن العنوان هو العتبة الأولى للعمل الروائي، فهو مرآة عاكسة للأحداث داخل الرواية، وهذا ما نستشفه داخل رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا، فقد ورد العنوان بصيغة الاستفهام للدلالة على مجموع التساؤلات التي تدور في ذهن المبدع تجاه ما عرفته الجزائر في مرحلة العشرية السوداء، باعتبار أن الرواية تحكي قصة تدور أحدثها نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي؛ لذلك يمكن إدراجها ضمن روايات أدب المحنة.
أما بالنسبة للشخصيات داخل العمل الروائي فقد أشرنا سابقا أن الرواية البوليسية بصفة عامة تسعى لكي تلهي المتلقي بحبكة متقنة تعج بالشخصيات، وهذا ما حدث فعلا داخل الرواية، فالقارئ للرواية يجدها تعاني نوعا من الصخب نظرا لكثرة الشخصيات، وهي نوعان:

5-1-1-الشخصيات الرئيسية:

وهي شخصية واحدة داخل رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا؛ وهي شخصية "وليد نافع" الشخصية البطلة داخل العمل الروائي، حيث اختاره الكاتب ليكون من الطبقة المهمشة من المجتمع، وليد نافع الذي لطالما كان يحلم بأن يكون فنانا، غير أن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية....المحيطة به جعلت منه شخصا قاتلا، حيث يقول واصفا حالته وهو يقدم على قتل أول ضحية: "....تكبدت كل مشقات العالم كي أتمكن من رفع يدي، أحسست بثقل في أصبعي الذي يمسك الزناد...."[12].
كما امتهن وليد نافع مهنة السياقة لدى أحد العائلات المرموقة التي تمثل الطبقة المثقفة أو المركز داخل المجتمع الجزائري، ".....أن تكون سائقا لواحدة من كبريات العائلات في مدينة الجزائر ليس مجرد رحلة سياحية"[13]، هذه الأسرة التي حاولت أن تمارس نوعا من السلطة والمركزية على هذا الشاب المهمش البسيط الوافد من أحد الأحياء الشعبية بالجزائر العاصمة وهو حي باب الواد، غير أن هذه الضغوطات التي مرست على البطل حولت الرواية شيئا فشيئا إلى رواية عنف ودم وقتل، هذه الاغتيالات التي كانت تستهدف المثقف الجزائري فيقول وليد

نافع أنه قتل "أول رجل يوم الأربعاء 12 جانفي 1994 .... وقد كان محاميا "[14]، "أول ضحاياه كان أستاذه الدكتور في الرياضيات...."[15].

إن المتأمل للشخصية الرئيسية في رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا يجد أن شخصية "وليد نافع" تعد محورا مركزيا ظاهرا من بداية الرواية إلى نهايتها؛ فهو يمثل نموذج الشاب الطموح الذي يحاول العمل لكسب قوته ومساعدة أسرته، حيث كان أمله الوحيد أن يصبح فنانا سينمائيا مشهورا لكن الظروف المحيطة به جعلت منه شخصية مجرمة؛ لقد وقع وليد نافع ضحية واقع معيشي مزري بالإضافة إلى انتمائه إلى عائلة فقيرة: "....أردت أن أكون فنانا، أثثت حيطان غرفتي بالكثير من الصور التي في علو الإنسان، عمر الشريف، آلان ديلون، كلوديا كردينال، يحيطون بي ويحاولون حمايتي من مأساتي العائلية؛ خمس أخوات تعانين، أم ثائرة....، ووالد متقاعد غضوب مهتم فقط بالترهات ولا يعرف شيئا آخر عدا العبوس...."[16].

لقد دخل البطل دوامة لا مناص منها بعد انتمائه إلى عائلة مثقفة من الطبقة البرجوازية، حيث أقحم وليد نافع في مقتل فتاة كانت في مقتبل العمر، وأصبح هذا يمارس نوعا من الضغط: "...عليك إذن أن تحترس من مفرداتك، وأذكرك بأنه من واجبك أن تعتبر نفسك في ورطة مثلي تماما"[17]، لقد مارس وليد نافع نوع آخر من الشهرة من خلال ممارسته حرفة القتل فانقلبت حياته رأسا على عقب، وأصبحت هذه الحياة تمارس نوعا من الضغط النفسي على البطل، وهنا أدرك البطل الفارق بين حياته البسطة والهادئة وحياته مع هذه الأسرة البرجوازية " قضيت أيامي مذعورا.....، شبح تلك المراهقة يلاحقني تحت الضباب ورأسها يظهر في كل مكان"[18].

5-1-2- الشخصيات الثانوية:

من الملاحظ على رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا كثرة الشخصيات الثانوية وهذا ما يثبتها الجدول الآتي:

الجدول 1: يمثل أهم الشخصيات الثانوية ودورها داخل الرواية

الشخصية	دورها داخل الرواية
حنان	هي فتاة مثقفة أحبها وليد نافع أراد خطبتها، لكن قتلها وهي في عمر الزهور
عمر الزيري	تحول مطعمه بعد أحداث 8أكتوبر 1988 إلى مطعم الرحمة، انظم إلى الجماعات المسلحة التي قتلته بسبب سرقة الأموال المخصصة للحرب.
رشيد دراق	كان مخرج أفلام، يتعاطى المخدرات وهذا ما أدى إلى قتله على يد الجماعات المسلحة.
فاروق الروجي	كانت مهمته داخل الرواية تجنيد المتطوعين الجدد من الأوساط الطلابية
جونيور	يمثل الطبقة البرجوازية والمثقفة، مبدأه الوحيد التمرد على القانون والتسلط على الطبقة البسيطة من المجتمع.

لم يكتفي الراوي بهاذه الشخصيات، بل أدرج شخصيات أخرى كشخصية: زبيدة، أبو مريم، والد حنان، ليلى سكار، حميد سلال، السيد علي، الزاوش، صالح لاندوشين، قادة بن شيحة، شرحبيل،...، وغيرهم من الشخصيات الأخرى.

5-2-بنية الزمان داخل الرواية:

"يعد الزمن عنصرا مهما من عناصر النص السردي، لأنه الرابط الحقيقي للأحداث ومحور بنية الرواية وجوهر تشكيلها"[19]، إن القارئ لرواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا يجد صعوبة بالغة في تحديد زمن أحداث الرواية، وذلك راجع للتداخل الكبير الواقع بين الزمنين الماضي والحاضر، وتعتبر مظاهرات أكتوبر 1988 التي مرت بها الجزائر أهم فترة تدور حولها الأحداث داخل الرواية إلى مطلع التسعينيات، هذا التاريخ الذي شهدت فيه الجزائر مظاهرات شبانية عنيفة كانت انطلاقتها الأولى من الجزائر العاصمة، ثم امتدت إلى بعض ولايات الوطن، هذا التاريخ الذي نتجت عنه ما عرف في تاريخ الجزائر بالعشرية السوداء.

3-5- بنية المكان داخل الرواية:

يعد المكان الركيزة الأساسية التي تدور فيها أحداث أي عمل روائي "فهو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني، فهو الجغرافية الخلاقة في العمل الفني"[20]، وللإشارة فقد احتضنت رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا عددا كبيرا من الأماكن التي دارت فيها أحداث الرواية؛ وذلك راجع للعدد الكبير من الصفحات التي تحويها الرواية والتي قاربت 400 صفحة، وهذا التنوع من حيث الأمكنة ساهم مساهمة فعالة في إثراء البناء السردي لأحداث الرواية لتأتي في حلة بوليسية متقنة الصنع، وقد كانت الرواية البوليسية نتيجة إفراز عوامل وصراعات عوامل واقعية داخلية وخارجية، لذلك تنوعت وتعددت الأماكن داخل الرواية وتعددت حسب الجدول الآتي:

الجدول 2: يمثل أنواع الأمكنة وحضورها داخل الرواية

أنواع المكان	حضورها داخل الرواية
الأماكن الرئيسية أو المركزية	هي الأماكن الأكثر حضورا داخل العمل الروائي، ومنها: البيت، الجبل الغابة، المسجد، القرية، الثكنة العسكرية، السوق، المعسكر،.....
الأماكن الثانوية	وهي الأماكن المساهمة في تفعيل أحداث العمل الروائي وتوزيعها، ومنها داخل الرواية: المدن كسطيف، وهران، باريس...، الحي، المطعم، الشوارع،.....
الأماكن الواقعية	وهي الأماكن التي تحضر بأسمائها الواقعية داخل العمل الروائي، وهي متنوعة داخل هذه الرواية: غليزان، البليدة، مقام الشهيد، قرية سيدي عياش،.....
الأماكن المتخيلة	وهي أماكن افتراضية من مخيلة الروائي، منها: المسرح، الملهى، الحديقة،.....
الأماكن المفتوحة	منها: المدينة، الشوارع، الجبل القرية، الغابة،....
الأماكن المغلقة	منها داخل الرواية: البيت، الكوخ، العمارة،.....

6-الخاتمة:

وفي الأخير ومن خلال ما قدمناه حول حضور الهامش داخل الرواية الجزائرية من خلال الرواية البوليسية، وبالتحديد رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا نموذجا نستخلص جملة من الملاحظات أهمها:

- لقد ذاع سيط مصطلح المركز والهامش في الأدب في النصف الثاني من القرن العشرين؛ وبالتحديد في سبعينات القرن الماضي، غير أن جذورهما تمتد إلى أبعد من هذا بكثير.
- تعد ثنائية المركز والهامش من الثنائيات التي أثارت جدلا بين النقاد، هذه الثنائية التي تجدها في مجالات عديدة كالسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والأدب.
- ينتج أدب الهامش خارج المؤسسة الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الأكاديمية،...لذلك تهمله الدوائر الرسمية؛ وذلك ناتج عن رفض المبدع الخضوع للسلطة التي تملي عليه مجموعة من المعطيات التي تقيد حريته.
- لقد حققت الرواية الجزائرية بعد الاستقلال كثيرا من التميز، واثبات الذات والخصوصية لتلج بقوة عتبات التجريب والحداثة، مما مكنها من احتلال مكانة هامة في رحاب الساحة الأدبية العالمية.
- تكاد الرواية البوليسية الغربية أن تهيمن على سوق الكتب الروائية، لاهتمام هؤلاء الكتاب بتحقيق الأرباح المالية والشهرة السريعة على حساب العمل في حد ذاته، هذا الأمر الذي كان سببا مهما في تعرض الرواية البوليسية للتهميش في أدبنا العربي.
- لقد حاول الروائي ياسمينة خضرا من خلال روايته "بماذا تحلم الذئاب؟" ترجمة معاناة المجتمع الجزائري وقد تجلى ذلك من خلال صور العنف المتولدة نتيجة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية.
- لقد سعت أغلب روايات التسعينات في الجزائر لتأريخ أزمة المثقف الذي أضحى مستهدفا، باعتبار أن هذه الفئة تحمل فكرا مغايرا لما هو سائد في هذه المرحلة.
- رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" لياسمينة خضرا تصلح لتعريف الآخر بفترة معينة من تاريخ الجزائر –فترة العشرية السوداء-، خاصة وأنها متوفرة بلغات عديدة، بالرغم من مبالغة الكاتب في وصف كمية العنف والدمار

والموت الذي شهدته هاته الفترة، هذه المبالغة التي كانت وليدة الحاجة الملحة للعمل الروائي باعتبار انتمائه لما عرف بالرواية البوليسية التي تستوجب هذه المبالغة في العنف والموت.

- من الأخطاء التي وقع فيها الروائي هي اختياره لأحداث غير مترابطة يشعر القارئ من خلالها بأن ياسمينة خضرا يود انهاء الرواية وفقط، وذلك راجع إلى الحجم الكبير للرواية وكثرة الأحداث والمواقف والشخصيات...داخلها، وهو خطأ كثيرا ما تقع في الرواية البوليسية التي تهتم بالجانب الدرامي للأحداث على حساب فنية العمل الروائي.

-كما توصي الدراسة بالزامية الإهتمام بأدب الهامش بعتباره يمثل نسبة كبيرة من المنتوج الأدبي العربي عامة والجزائري خاصة، كما أنه موجه لشريحة واسعة من المجتمع لا يستهان بها.

7-الهوامش:

[1]– عبد الرحمان تبرماسين–على دغمان، في النظرية النقدية القديمة من الفاعلية المركزية إلى الهامشية فعل القراءة –أنموذجا–، مقال منشور في سلسلة ندوات المخبر، جامعة بسكرة، ص 12.

[2] – صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، الطبعة الأولى، دار الفارس، عمان–الأردن–، 2010، ص 83.

[3] –عز الدين مناصرة، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة –قراءة مونتاجية–، دار الراية للنشر والتوزيع، الأردن – عمان–، ص 49.

[4]– ك. فانسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصفر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص230.

[5]– عز الدين المناصرة، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة –قراءة مونتاجية–، ص 184.

[6]– ينظر: العربي دحو، إطلالات مقاربة للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة –الجزائر–، 2011، ص24.

[7] – المرجع نفسه، ص 23.

[8]– مصطفى عطية جمعة، ما عد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات–الوطن–الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان –الأردن–، 2010، ص 97.

[9]–المرجع نفسه، ص97.

[10]– عبد القادر شرشال، الرواية البوليسية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص15.

[11]– شعيب حليفي وآخرون، المحكي البوليسي في الرواية العربية، الطبعة الأولى، منشورات مختبر السرديات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الثاني– المحمدية –، الدار البيضاء–المغرب–2012، ص5–6.

[12]– ياسمينة خضرا، بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة: عبد السلام يخلف، مطبعة موقان، أفريل 2014، ص17–18.

[13]– المصدر نفسه، ص 24.

[14]–المصدر نفسه، ص 383.

[15]– المصدر نفسه، ص 264.

[16]–المصدر نفسه، ص 26.

[17]–المصدر نفسه، ص105.

[18]–المصدر نفسه، ص 112.

[19]– مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص36.

[20]– ياسين النصير، الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي)، الطبعة الثانية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2010، ص 60.

8-قائمة المصادر والمراجع:

1- شعيب حليفي وآخرون، المحكي البوليسي في الرواية العربية، الطبعة الأولى، منشورات مختبر السرديات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الثاني- المحمدية -، الدار البيضاء-المغرب-2012.

2- صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، الطبعة الأولى، دار الفارس، عمان -الأردن-، 2010.

3- عبد الرحمان تبرماسين-على دغمان، في النظرية النقدية القديمة من الفاعلية المركزية إلى الهامشية فعل القراءة -أنموذجا-، مقال منشور في سلسلة ندوات المخبر، جامعة بسكرة.

4- عبد القادر شرشال، الرواية البوليسية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

5- العربي دحو، إطلالات مقاربة للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر-، 2011.

6- عز الدين مناصرة، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة -قراءة مونتاجية-، دار الراية للنشر والتوزيع، الأردن -عمان-.

7- ك. فانسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصفر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009.

8- مصطفى عطية جمعة، ما عد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات-الوطن-الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن-، 2010.

9- ياسمينة خضرا، بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة: عبد السلام يخلف، مطبعة موقان، أفريل 2014.

10- ياسين النصير، الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي)، الطبعة الثانية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2010.